

كيف يوازن الأطباء في غزة بين إنقاذ مرضاهم وإنقاذ أهاليهم؟



شاهد الدكتور محمد الحويحي لمدة ثلاثة أيام أواخر شهر كانون الثاني/يناير الدبابات الإسرائيلية تقترب أكثر فأكثر من مركز ناصر الطبي، مدركاً أن الوقت قد حان لاتخاذ القرار قريباً. ومنذ أسابيع، كان يناقش السيناريو الوشيك مع زوجته الدكتورة ربا الكرد. وكان لديه خيارين: إذا غادر عائداً إلى الملجأ في دير البلح وسط القطاع حيث تعيش ربا مع أطفالها الثلاثة الصغار، فإن مرضاه والمستشفى سيكونون بدون جراح أوعية دموية؛ وإذا بقي ودخلت القوات الإسرائيلية المبنى فلا يمكن التنبؤ بما قد يحدث له أو ما إذا كان سيرى عائلته مرة أخرى.

في أواخر شهر كانون الثاني/يناير، مع تعثر إشارات الاتصال حول ناصر، حاولت ربا إرسال رسائل لزوجها تطلب منه العودة إلى المنزل. أخبرتها قائلة: "كنا أنا ووالدته نتوسل إليه أن يغادر إذا اشتدت الأمور". ولعدة أيام، لم تصل منه أي رسائل وكانت ربا تخشى أن يتعرض للاعتقال أو القتل.

في 19 كانون الثاني/يناير، وصلت رسائل منه أخيراً فأرسلت نداءها الأخير إليه. قالت له ربي، وهي طبيبة أيضاً وتعمل بشكل متقطع منذ بدء الحرب: "تذكر أن أطفالنا هم مسؤوليتك أيضاً، وليس مرضاك فقط، وعليك التزامات تجاهنا. لا أستطيع أن أفعل ذلك وحدي، وإذا كنت عالماً في ناصر أو تم القبض عليك، فإن القلق عليك سيقتلني". وفي الليلة السابقة، أخبرني الزوجان لاحقاً أن صوت القنابل من بعيد لم يتوقف. وقدّر محمد أن الدبابات الإسرائيلية كانت على بعد بضع مئات من الأقدام فقط. وبعد أكثر من مائة يوم في المستشفى، أجرى آخر عملية جراحية له، حيث بتر ساق فتاة تبلغ من العمر 15 سنة، ثم غادر عائداً إلى الملجأ.

هناك، التقى محمد مجدداً مع ربي وأطفالهما الثلاثة: أمين (سبع سنوات) ويحلم بأن يصبح فناناً، وحنة (ست سنوات) ذات شعر مجعد ورثته عن والدتها، وربم التي ولدت خلال حرب أيار/مايو 2021 وكانت قد بدأت للتو في نطق الجمل كاملة.

يقع مأواهم في الطابق الثاني من مبنى مؤقت بجدران من الطوب وسقف من الصفائح المعدنية وحمام بدائي، واثنين من المراتب والبطنيات على الأرض. إنه أفضل بكثير من الظروف المعيشية لمعظم الناس في غزة - ولكن لا تزال الأسرة تكافح من أجل العثور على المياه النظيفة. وقد عانى الأطفال الثلاثة من نوبات طويلة من الإسهال، ومن الصعب العثور على دواء لهم. وأخبرتني ربي أنه من المؤلم لها كطبيبة عدم القدرة على مساعدة أطفالها المصابين بهذا المرض القابل للشفاء.



كان محمد الحويحي يعيش ويعمل في مركز ناصر الطبي حتى أواخر شهر كانون الثاني/يناير. وفي الشهر الماضي، داهمت القوات الإسرائيلية المستشفى.

كانت ربي (33 سنة) صديقة مقربة لي. التقينا في سنة 2022، عندما كنت مديراً للاتصالات في منظمة أطباء بلا حدود في غزة. وعملت في عيادة "إم إس أف" لمرضى الحروق وأغلبهم من الأطفال. كنت بحاجة إلى طبيب ليعطيني حقنة، وكانت هي، بملابسها ذات اللون الوردى الفاتح، بين المرضى. لقد كوننا رابطة عاطفية بسرعة، وكنت أتوجه إلى عيادة ربي خلال فترات استراحتها لأتشارك معها القهوة التركية، أو أقابلها في عطلات نهاية الأسبوع للتسوق في الشوارع الرئيسية لمدينة غزة، وكانت ريم تتقدم أمامنا. كنا نتذمر ونضحك من رئيسنا في الإدارة التفصيلية أو من الأطباء الذكور الذين يعرفون كل شيء والذين يحاولون توجيهه أنشطة العيادة.

أخبرتني أنها وقعت في حب محمد في سنة 2013 عندما كانت في كلية الطب وكان مقيماً، ويرجع ذلك جزئياً إلى أنه، على الرغم من موهبته في الجراحة، كان يفتقر إلى الرجولة التي رأتها في بعض زملائها في الفصل. لقد أحببت شخصيته اللطيفة، وكانت تريني في كثير من الأحيان صوراً له وهو جالس على الأرض، وقد صفف شعره بعصابات الرأس والإكسسوارات الخاصة بجنة وريم.

عند نهاية عقدي في غزة في كانون الأول/ديسمبر 2022، أخبرت ربي أنني أبحث عن عمل في مناطق صراع أخرى. كنت سأعود إلى موطني في كندا لفترة وجيزة فقط بين المهام. لقد تغير سلوكها ولأول مرة في صداقتنا شعرت أنها غاضبة مني. أخبرتني أنها ستضحى بحياتها من أجل أن يكبر أطفالها في بيئة سلمية مثل كندا، وذكرتني كيف أنها عندما كانت على وشك ولادة ريم، كانت تخشى أن يتم قصف المستشفى الذي كانت فيه. لقد سئمت من الشجاعة التي شعرت بها بشكل صحيح في العاملين في المجال الإنساني المغتربين، الذين طاردوا مناطق الصراع من أجل التفاخر. لماذا أختار الخطر وعائلتي تنتظر عودتي سالمة إلى بيتي؟ كنت أعرف أنها كانت على حق. عدت إلى كندا، وسافرت إلى الضفة

الغربية لإعداد تقرير، على الرغم من أنني لم أتمكن من دخول غزة مرة أخرى. لقد راسلنا بعضنا البعض خلال صراعات آب/ أغسطس 2022 وأيار/ مايو 2023، لكن كلانا كان يعلم أن الأمور ستكون مختلفة بعد السابع من تشرين الأو/ لأكتوبر. وقال محمد إنه وري سمعا عن الهجمات بينما كانا يجهران الأطفال لهذا اليوم. وبحلول منتصف الصباح، طلب منه الذهاب إلى المستشفى في أسرع وقت ممكن.

كان من المفترض أن تذهب ربي إلى عملها أيضاً في عيادة الحروق في مدينة غزة، حيث شهدت في الصراعات السابقة، تدفقاً كبيراً من الحالات غير الطارئة ومتابعة الحالات. ولكن عندما طلبت القوات الإسرائيلية من سكان غزة في شمال القطاع الإخلاء أخذت أطفالها على مضض إلى ملجأ دير البلح، بالقرب من عائلتهم الكبيرة.

بحلول شهر تشرين الثاني/نوفمبر، كانت ربي ترعى المرضى في العيادات والمستشفيات، بينما كانت والدة محمد ترعى الأطفال. وصفت الإصابات التي رأتها بأنها معقدة، مزيج من الالتهابات والكسور والحروق بالإضافة إلى سوء النظافة وسوء التغذية - مما جعل من الصعب معالجة الجروح. وكان محمد في الجراحة طوال اليوم، قال لي: "كان الموظفون منهكين حتى قبل الحرب"، وتحت مزيد من الضغط كان موظفو المستشفى يتجادلون باستمرار. في البداية، كانوا يحصلون على وجبتين في اليوم وبعد شهر انخفض عددها إلى وجبة واحدة، وقال محمد: "فاتتني وجبتي عدة مرات" لأنه كان في غرفة العمليات.

في تشرين الأو/أكتوبر، تلقى محمد وري أنباءً عن تدمير المبنى السكني الخاص بهما. لقد وقعت العيادة التي التقينا فيها أنا وري وسط القتال ودمرت بالنيران في تشرين الثاني/نوفمبر، وبدأت أشعر بالقلق بشأن صحة ربي النفسية. اتصلت بي وأخبرتني أن منزلها قد اختفى، مرارًا وتكرارًا، ثم أتبع ذلك لاحقًا بإظهار الصور القديمة لي: ريم تأكل الفطائر في زاويتها المفضلة من المطبخ، أو الأطفال يجتمعون مع أبناء عموماتهم على أريكة زرقاء اللون لمشاهدة الأفلام، كان صوت ربي مرحًا والآن أصبح الصوت أجشًا، وتحديث بإيقاع بطيء.



التقطت زوجة محمد، ربي الكرد، صورة لمحمد وهو يجتمع مع ابنتهما في الخريف الماضي. كانت مكالماتها مرعبة، ذكرتني بحادثة حين اتصل بي ابن عمي في الصباح الباكر وهو يحاول الانتحار، لقد

تمكنت من استدعاء سيارة إسعاف إلى منزله وإنقاذ حياته، ولكن إذا اتصلت بي ربي أثناء غارة جوية، ماذا يمكنني أن أفعل؟

ذات مرة، أثناء انقطاع الاتصالات، سمعت ربي أن مخيم اللاجئين الذي كانت أختها تلجأ إليه قد تعرض للقصف، ولم يتمكن أحد من عائلتها من العثور عليها. ذهبت ربي، بصفتها طبيبة الأسرة، إلى المنشأة حيث يتم التعرف على جثث الناجمة عن الهجوم. حاولت النظر إلى أقدام الضحايا، لكنها كانت مشوهة للغاية، ووسط الفوضى لم تستطع تذكر شكل أختها. وأخيراً، تذكرت العملية القيصرية لأختها، وفحصت بقايا البطن، وغادرت دون العثور على تطابق. وبعد أيام، عثر أحدهم على شقيقتها على قيد الحياة، تتجول في الشوارع، ويبدو أنها تعاني من ضائقة نفسية شديدة.

شعرت أن عجز ربي عن حماية أسرته ومرضاهما كان السبب الرئيسي في معاناتها. وعندما طلبت منها أن تحاول الحصول على بعض الراحة، أجابت: "لا أستطيع النوم، مع العلم أنني فشلت في وظيفتي كأم وفشلت في واجبي كطبيبة". وعلى نحو متزايد، تحولت أفكارها إلى الموت، ومنذ عودة محمد من المستشفى، حاولت الأسرة أن تبقى معًا قدر الإمكان حتى لا تترك الغارة الجوية أيًا من الأطفال يتيمًا، أو ربي أو محمد بدون بعضهما البعض، لذلك ينامون جميعًا بالقرب من بعضهم البعض قدر الإمكان.

في وقت مبكر من صباح يوم 12 شباط/فبراير، ضربت غارة جوية المبنى الواقع على الجانب الآخر من الشارع الذي يقع فيه ملجأ الأسرة، وانحنت ربي فوق جنة، ومحمد فوق ريم وأمين، وأدى الانفجار إلى تحطيم النوافذ وتطاير الحطام إلى ملجأهم. في اليوم التالي، قالت ربي إن ظهرها كان يشعر بالألم لأن الحطام ضربها بقوة. ومنذ ذلك الحين، تفاقمت كوابيس الأطفال، قالت لي ربي "نحن على قيد الحياة، لكننا لسنا بخير".

وفي 15 شباط/فبراير، اقتحمت القوات الإسرائيلية مستشفى ناصر بدعوى أن فيه مسلحين وأن بعض الرهائن محتجزون هناك. دخل فريق طوارئ من أطباء منظمة الصحة العالمية إلى المستشفى يوم 18 شباط/فبراير لنقل مرضى وحدة العناية المركزة. وأفادت منظمة الصحة العالمية بأن مستشفى ناصر لم يكن فيه كهرباء أو مياه جارية، وأن "النفائات الطبية والقمامة تشكل أرضاً خصبة للأمراض". وقال مسؤول في الأمم المتحدة شارك في عمليات النقل لقناة الجزيرة: "الظروف مروّعة. هناك جثث في الممرات". ومن جهته، لم يستجب الجيش الإسرائيلي لطلب التعليق.

بعد أسابيع من الغارة على المستشفى، لم يسمع محمد بعد أي شيء عن زملائه الذين بقوا هناك: "هذا يجعلك تسأل نفسك: متى يحين دوري؟". وأخبرني أنه وربي "استسلما لعجزهما"، سوف يستمران في العمل عندما يستطيعان ذلك، لكن الضربات الجوية تستمر طوال الليل، وتستمر الأخبار عن وفاة أصدقاء العائلة والمعارف، وهم يكافحون من أجل العثور على الطعام الذي يقل كل يوم.

عندما التقيا قبل أحد عشر سنة، كان حلم محمد وربي بشراء قطعة أرض خاصة بهما حيث يمكنهم بناء منزل وتربية أسرة، وبعد الانتهاء من كلية الطب والعمل لبضع سنوات، قاموا بشراء قطعة أرض صغيرة في شمال غزة. وفي شهر حزيران/يونيو الماضي، قاموا بتعيين مهندس مدني لتصميم المنزل، وقامت ربي ومحمد بتجميع ألبومات رقمية من مقاطع الفيديو والصور، وكانت تأمل أن تستضيف إخوتها وعائلاتهم، لتخلق واحة سلام في غزة. اعتقدت أنه ينبغي عليهم أولاً إزالة الأشجار من موقع البناء، لكن محمد أخبرها أنه يريد الانتظار حتى يحصد برتقال الشتاء وانفقا على البدء في البناء في كانون الثاني/يناير. قالت ربي: "لكن الحرب جاءت في تشرين الأو/أكتوبر، لم يأكلوا البرتقال قط، ولم يطهروا الأرض، وأضافت: "قد لا أتمكن من الوصول إلى الأرض التي عملنا بجد من أجلها".

المصدر: نيويورك

كيف يوازن الأطباء في غزة بين إنقاذ مرضاهم وإنقاذ أهاليهم؟

كلير بورتر روبنز | نشر في ٨ مارس, ٢٠٢٤



رابط المقال: <https://www.noonpost.com/202668/>